جـــلال أميـــن

خرافـة التقـدم والتخلـف

العرب والحضارة الغربية فى مستهل القرن الواحد والعشرين

دار الشروق

قبل القراءة

أجب:

1. هناك مفردات تعبر عن مضاد الدولة المتقدمة ما هي؟ وما الأفضل بالنسبة لك؟
2. هل نستطيع أن نتعامل مع الدول غير المتقدمة كمجموعة واحدة؟ لماذا؟
3. هل الثقافة الوطنية قد تكون ضد مصالح الدول المتقدمة؟

تعلموا المفردات:

1. **ما معنى المفردات التالية؟**

وضع يد

خاضعة ل

ملاءمة

النفور من

الاستغناء عن

في أعقاب

الإقلاع عن

جناية

المقيتة

الثقافة الوطنية والتنمية

بدأت القصة بموقف الاقتصاديين من قضية التقدم الاقتصادى فى البلاد الفقيرة التى خضعت للاستعمار لفترة طالت أو قصرت، خلال القرن الممتد بين ١٨٥٠ و١٩٥٠ .

طوال هذه الفترة لم يكن شعار التنمية الاقتصادية قد اخترع بعد، بل كانت الكتابة فى هذا الموضوع، تحت أى اسم من الأسماء، نادرة للغاية، إذ كانت الفترة هى فترة الاستعمار، فى صورته التقليدية، الذى يقوم على وضع اليد على مواد أولية ينتجها البلد المستعمَر (بفتح الميم) واستغلال قوة العمل الرخيص فيه.

كان من المفيد جداً، فى مثل هذا الوضع، أن يشاع بين شعوب الدولة الخاضعة للاستعمار أن التنمية الاقتصادية فيها أمر مستحيل أو فى حكم المستحيل، لأسباب متعددة أهمها عدم ملاءمة ثقافتهم الوطنية لمثل هذا الهدف السامى. فثقافتهم الوطنية تدعو إلى الكسل، ويسودها الإيمان بالقضاء والقدر وتقديس القديم والنفور من أى جديد، وتقديم الأمور الروحية على الأمور الاقتصادية، وتعلى الروابط العائلية فى ظل العائلة الممتدة، على حساب استقلال الفرد وطموحاته الخاصة، وتتخذ موقفا معاديا لاقتضاء فوائد على القروض، وكلها أمور معطلة للتنمية بل ومانعة لها مما يجعل التنمية الاقتصادية فى حكم المستحيل. ومن ثم فالأفضل لهذه الدول المتأخرة (backward)، وهو الاسم الشائع للمجتمعات الفقيرة فى أوائل القرن العشرين، أن تنسى التصنيع والتنمية وترضى بما هى فيه.

مع انتصاف القرن العشرين كانت أمور العالم قد تغيرت كثيراً عما كانت قبل قرن أو حتى نصف قرن من الزمان. فقد أصبحت بعض أنواع التقدم الاقتصادى فى البلاد الفقيرة مطلوبة حتى من وجهة نظر الدول المتقدمة نفسها، ولكنها أنواع معينة من التقدم دون غيرها. من المفيد للدول المتقدمة أن تتسع أسواق الدول الفقيرة لاستهلاك سلع وخدمات جديدة لم تكن تنتج من قبل، أو لم تكن تَنتج بهذه الكثرة، من السيارات إلى زجاجات الكوكاكولا إلى الأسلحة، وتصريف هذه السلع يحتاج إلى بعض أنواع التنمية، كارتفاع متوسط الدخل، بشرط ألا يعنى هذا زيادة قدرة هذه الدولة الفقيرة على إنتاج مثل هذه السلع بنفسها والاستغناء عن

استيرادها. لم يعد من المفيد إذن القول بأن التنمية فى هذه البلاد مستحيلة، بل من المفيد التشجيع عليها، ومن ثم ظهرت شعارات التنمية وترددت بكثرة فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتشرت انتشار النار فى الهشيم. وحيث أن التنمية الآن أصبحت ممكنة ومرغوبا فيها، فإن من الأفضل الإقلاع عن تسمية هذه البلاد بالمتأخرة، وإطلاق أسماء أكثر تفاؤلا كالدول المتخلفة (underdeveloped) أو حتى النامية (developing).

خلال عقدى الخمسينات والستينات، ارتكبت جناية أخرى فى حق الثقافات الوطنية للبلاد الفقيرة وذلك بضمّنا جميعا، نحن شعوب هذه البلاد، واعتبارنا شيئا واحداً دون تمييز بين أمة وأخرى، وبين ثقافة وغيرها، مادمنا نشترك جميعا فى تلك الخصائص المقيتة التى سموها «خصائص البلاد المتخلفة». ففيما يتعلق بهذا «التخلف»، الهند مثل الصين، والعرب مثل الأفارقة وشعوب أمريكا اللاتينية، والمسلمون والمسيحيون مثل الوثنيين. ألا يجمعهم جميعا انخفاض متوسط الدخل بالمقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية؟.

منذ السبعينات من القرن الماضى أخذت تتردد، بقوة متزايدة، شعارات جديدة فى كتابات التنمية تدور حول ضرورة الانفتاح الاقتصادى، ثم أضيف إليها شيئًا فشيئًا شعار التصحيح الهيكلى والخصخصة، وكلها تدور حول الدعوة إلى فتح الأبواب على مصاريعها أمام التجارة الدولية والاستثمارات الأجنبية، وتقليص دور الدولة فى حماية الاقتصاد القومى ومحدودى الدخل. كما شاع الكلام أيضًا عن دور المجتمع المدنى ومزايا تقويته، وعن حقوق الإنسان وضرورة احترامها.

خلال التسعينات رفع شعار جديد يتفق مع الحالة الجديدة التى دخل فيها العالم بسقوط الكتلة الشيوعية وبدء انفراد الولايات المتحدة بتقرير مصير العالم. فقد بحث صُنّاع الرأى العام فى الولايات المتحدة عن شعار جديد يمكن أن يحل محلّ مكافحة الشيوعية ويقوم بنفس الدور فى تحريك عجلة إنتاج الأسلحة، وتكوين الأحلاف، وتبرير التدخل فى أمور الدول الأخرى وفرض الإرادة عليها، فتفتق ذهنهم عن شعار «صراع الحضارات»، وإذا بنا نجد ثقافتنا وقد وُصفت فجأة بأنها فى حالة صراع مع ثقافة الغرب التى اعتبروها بالطبع ثقافة أرقى ومن ثم أحق بالبقاء.

والغريب أننا وقعنا فى الفخ مرة أخرى، فلم نحاول الرد على ذلك بالقول بأن الحالة ليست حالة صراع بين ثقافات وإنما حالة اعتداء من ثقافة على أخرى.

إن ثقافتنا الآن لا توصف بالتأخر أو التخلف بل بالإرهاب، والمطلوب الآن ليس الارتقاء بهذه الثقافة بحيث تتكيف مع متطلبات التنمية الاقتصادية، على أساس أن هذه هى طريقة التعامل المناسبة مع «التخلف»، بل المطلوب الآن استئصال هذه الثقافة من جذورها، على أساس أن هذه هى طريقة التعامل المناسبة مع «الإرهاب».